الفصل السادس

ما يسمونه...

زحفت الساعة نحو التاسعة مساءً، حين عاد عبد الكريم لمنزله، أخذ نفساً عميقاً كأنما يطلب من الراحة القاطنة في أرجائه أن تدلف إلى صدره وتزيح عنه مشقة يومه، أغلق الباب الخارجي، ودلف الصالة الواسعة سريعاً باحثاً ببصره عن الأريكة القريبة ليلقي بجسده عليها ولو للحظات، استقبلته عائشة عند باب غرفتها مرحبة به، ولم تضف كلمة حين رأت ملامح وجهه، تأملته وهو يتجاوز المساحة الفارغة بمقدمة الصالة قرب مدخلها، ويتجه نحو الأرائك الخمس أمامه ذات اللون البنفسجي المتناسقة في لونها مع ألوان الجدار البنفسجي والأبيض والوردي الداكن والمرتبة في نقوش جميلة، اصطففن في حلقة شبه دائرية قطع اتصالهن مساحة تُركت لأجل التلفاز المعلق بالجدار، توسطهن طاولة زجاجية فاخرة عكست الأضواء الساطعة من مصابيح الصالة ونجفاتها.

اختار الأريكة الأقرب ليمناه وهو يرد عليها دون أن ينظر إليها، لم يتوقف للحظة، حتى ألقى بجسده، وخلع عمامته، وأرخى رأسه على ظهرها، وأغمض عينيه وهو يمرر يده بين شعيرات رأسه الرمادي ويسمح لبعض النسمات الباردة بأن تنفذ لفروة رأسه. لم تطق صبراً حتى تنتظره لتطمئن عليه، فسألته:

-كيف تسير الأمور معك؟

نظر إليها، وقال في وهن:

-جيدة بحمد الله، اجتمع مسؤولي الهيئة بالتجار ليروا كيف سيساهمون في الأزمة الحالية.

ردت في قلق:

-عبد الكريم، أجبرتني على البقاء ووافقت لأجلك، تعرضت لرجال العصبة ومنعتهم من السرقة ومر الأمر بسلام، والآن ستعمل ضدهم علناً؟ أنا خائفة عليك.

هز رأسه مطمئناً:

-لا تخافي، أنا لا أعمل ضد أحد بل مع الجميع لأجل المدينة، لا بد أن نواجه هذا الواقع بكل ما نستطيع لا أن نقف مكتوفي الأيدي.

-ألم تمنع طارق في أول يوم جاءوا فيه من أن يعترضهم؟ لِمَ لم تتجنبهم أيضاً؟

-طارق يتصرف بطيش لا هم له إلا تحقيق نزواته وإرضاء غروره، وتنفيذ ما يوافق هواه، ما قمت به لم يكن لأجل نفسي، الناس كلها وقفت إلى جانبي حينها.

دمعت عيناها وهي تقول في خوف وقلق تضاعفا من نبرة صوتها:

-أنا خائفة عليك يا عبد الكريم، لا أريد أن يصيبك مكروه لا سمح الله.

أمسك بيدها وأجلسها على الأريكة إلى جواره، وهو يربت على كفها ويقول مطمئنا إياها:

-لا تجزعي هكذا يا عزيزتي، اطمئني، الكل يعمل مثلي، ولن يصيبنا شيء إلا بأمر الله.

حاولت أن تغالب خوفها لكن الدموع غلبتها فلم تطق حبساً وانهمرت على خديها مدراراً، أحاط كتفها بذراعه وقربها إليه أكثر حتى أسند رأسها إلى كتفه، ومسح دموعها بيده الأخرى وهو يقول:

-عائشة، كفي عن البكاء، سيكون كل شيء على ما يرام، كوني قوية.

هدَّأت من نشيجها، وهي تقول:

-سأحاول ذلك، كن حذراً، أرجوك.

-سأفعل إن شاء الله.

ظل يراقبها حتى شعر بأنفاسها قد انتظمت واضطراب صدرها قد اختفى، وابتعدت عنه، ابتسم لها لتبادله بأخرى مثلها، بعد لحظات، دلف طارق، فسلم على والديه في مرح وهمَّ ليدخل غرفته، إلا أن عبد الكريم استوقفه وهو يقول في حزم:

-أين كنت يا طارق؟ أراك تتأخر هذه الأيام.

-كنتُ مع رفاقي عند شاطئ البحر.

-البحر! وإلى هذه الساعة؟ المدينة ليست آمنة حتى تذهب لمكان منعزل كالبحر وفي هذا الوقت.

-ما من خوف يا أبي، لا تزال الحركة في الشوارع قربه.

-حسناً، أريد أن أحدثك في أمر، اجلس قليلاً.

امتثل لأمر أبيه، وجلس على الأريكة مقابلاً لوالديه، بينما ظلت عائشة تراقبهما في اهتمام حين رأت ملامح الجد على وجه زوجها، فقال عبد الكريم:

-لقد تقدم مجموعة من الشباب بمقترح حماية ما يمكن حمايته بالمدينة من عبث العصبة، وأيضا هناك أنباء تفيد بوجود وجوه غير مألوفة في نواحي المدينة وهؤلاء ليسوا منهم، بل

يُعتقد بأنهم من المتمردين الغازين في عدن، إنهم يحاولون التسلل إلى هنا، لذا سيعمل شباب كل حي على حماية حيه في نوبات حراسة ليلية.

رفع طارق حاجباه وصاح في استنكار:

-حراسة! الآن؟

-نعم.

-في ماذا ستفيد الحراسة بعد أن توغل الغزاة في المدينة واستولوا عليها؟

-الحراسة ستنقذ ما يمكن إنقاذه، سيدركون بأن الناس لن تسمح بمزيد من التمادي، وستحمي المدينة من خلاياهم النائمة الراغبة في استفحال دائهم، وأيضا مسؤولي الهيئة سيحاولون التفاوض معهم لاستعادة منشآت الحكومة لتعود الحياة للمدينة وإزالة هذا الخناق عنها.

قال في سخرية:

-هه، تفاوض! الآن بعد أن وقع كل شيء في أيديهم؟ أين هم منذ البداية عندما هجموا وسرقوا ونهبوا؟

رد عليه في حزم:

-طارق، السكان يحاولون تجنب سفك الدماء، هؤلاء إن وجدوا مقاومة بالسلاح لن يتورعوا عن فعل ما يفعله المتمردون، والأمر الآخر هو سقوط المدينة المفاجئ، كيف تريدهم أن يقاتلوا بعد أن انسحب الجنود المدافعين عنها؟

-لا يهم كيف يا أبي، الأمر الآن قد انتهى و....

قطع كلماته وهو يقول في عصبية:

-لم ينتهِ الأمر، الناس قد أدركوا الآن بأنه لن يدافع أحد عن أرضهم غيرهم.

-دون سلاح؟!

-قلت لك المقاومة لا تشترط وجود السلاح، هذه نمط مقاومتنا.

هز رأسه وهو يقول في ضيق:

-اعذرني يا أبي، أرى بأن الحراسة في هذا الوقت غير مجدية، وحتى إن كانت كذلك، فلن أخاطر بنفسي لأجل من تعايش مع الذل منذ البداية.

-لا حول ولا قوة إلا بالله، ألا تفهم يا ولدي؟ يجب أن يعمل الجميع لأجل المدينة مهما كانت الظروف.

رد في حزم:

-وأنا لا أريد ذلك، قلت لن أخاطر بنفسي.

تدخلت عائشة وهي تقول في عصبية:

-لا يا عبد الكريم، لا أريد أن يُشارك طارق في الحراسات الليلية.

ازدادت لهجة عبد الكريم حدة وهو يقول:

-لا تتدخلي يا عائشة.

-بل سأتدخل، طارق ولدي ولا أريده أن يخاطر بنفسه، أرجوك لا تفجعني أكثر من هذا.

سر طارق في نفسه لتدخل والدته، بينما قال عبد الكريم في غضب:

-هذه المدينة للجميع ويجب عليهم أن ينهضوا لأجلها، هذا وطننا ويجب أن يحميه الصغير والكبير.

-وطن! عن أي وطن تتحدث وسادته لا يعملون إلا لأجل أنفسهم لا لأجله، نحن مجرد أكباش فداء لحظيرة الوطن حتى يعلنوا تسيدهم علينا لا أكثر، نحن الحلقة الأضعف والأسهل في التضحية لأجل ما يسمونه بالوطن.

-هل سأدخل في جدال آخر بعيد عن صلب الموضوع؟

تمتم بذلك لنفسه في ضيق، وأشار لطارق بالذهاب لغرفته ففعل، ولما خلا المكان لهما، قال لها في حزم:

-من تتحدثين عنهم لا يحبون إلا أنفسهم يا عائشة، نحن نحب وطننا ولذا سنفعل ما في وسعنا لأجله.

-وفي ماذا سيفيدني حب الوطن إن فقدتُ ابني الوحيد؟ لن تعوضني كل كنوز الأرض عنه، لا أريد لطارق أن يشارك في شيء.

-يجب عليه أن يُشارك مثل الجميع، هذا هو واجبه، ما الفرق بينه وبين باقي شباب المدينة؟ هل يقل شهامة عنهم؟ هل هو جبان، أم أن تدليلك له سيجعله غبياً؟

-طارق ليس جباناً، وليفعلوا ما يحلو لهم، لا أريده أن يشارك أبداً أنا خائفة عليه، فلا توجع قلبي أكثر مما أنا فيه، يكفيني ما تقوم به.

-مهما كانت الظروف التي قد تحيط بنا أو تجعلنا نكره اليوم الذي ولدنا فيه هنا، ستبقى هذه الأرض أرضنا، ولن يحميها غيرنا.

-الظروف التي تكالبت على البلاد هي من دفعت بأخيك وأهله للسفر إلى الكويت وتركه خلفه، ليتك فعلت مثله، حب الوطن ليس سوى شعار لا يعد يردده إلا أمثالك.

زفر في ضيق حين أدرك بأن لا طائل من حديثه، فقال لها:

-وماذا عمن نهضوا الآن رغم الحصار؟ شباب أصغر من طارق وفي مثل عمره كانوا مستعدين للمبادرة ولفعل أي شيء لأجل الجميع.

صاحت في عصبية وتوتر:

-لا يهمني ما تقوله يا عبد الكريم فلن أؤلم قلبي بفاجعة قد تحل بولدي بسبب شعاركم ذاك، رجاء لا تحاول إقناعي، اسمح لي في الذهاب الآن لإعداد العشاء لكم.

وانصرفت، بينما هز رأسه وهو يقول في انزعاج:

-لا حول ولا قوة إلا بالله، الآن لن أتمكن من إقناع طارق ورأي أمه بهذا الشكل، ستزيد من تماديه.

في تلك اللحظة، رن هاتفه فالتقطه ليجد المتصل سهيل، فأجابه:

-هل من جديد؟

-هناك نازحة من عدن تود مقابلتك يا سيدي.

-أتبحث عن سكن؟

-نعم.

-أليس في مقدورك أن توفر لها شقة؟

-بلى، ولكنها طلبت مقابلتك الآن دون أن تخبرني السبب.

-الآن؟

-نعم.

-لِمَ؟ هل الأمر مستعجلٌ إلى هذه الدرجة؟

-لا أدري، لم تخبرني بشيء.

-حسناً، لنلتقي في المؤسسة، أنا قادم.

-سأبلغها بذلك.

وأغلق الخط، ثم عدَّل عمامته على رأسه ونهض من مكانه وهتف مخاطباً عائشة:

-سأخرج الآن يا عائشة.

أطلت عائشة من باب الممر المؤدي للمطبخ والذي كان مقابلاً للأريكة التي جلس عليها عبد الكريم، سألته في استغراب:

-إلى أين؟

-هناك عمل مفاجئ، لا تقلقي، لن أتأخر.

-حسناً، انتبه لنفسك.

-سأفعل إن شاء الله.

عندما أعلن عقربا ساعة يده وصولهما إلى التاسعة وخمسٍ وأربعون دقيقة، وصلت سيارته إلى مقر المؤسسة، نسمات الليل الباردة قليلا كانت تخفف عنه بعضا من عناء اليوم، وأصوات موسيقى الحشرات كانت تملأ المكان، الناس تحاول قدر المستطاع العودة لبيوتها مبكرا في ظل الظروف غير الآمنة، خرج من السيارة ودخل المبنى ليجد سهيلاً في استقباله في صالة الاستقبال، والمرأة جالسة على كرسي بها وبرفقتها أربعة أطفال، كانت ترتدي عباءتها وحجابها ونقابها السود، مخفية بهم كل جسدها، أما الأطفال فكانوا طفلتين وولدين، الطفلة الكبرى في نحو الخامسة عشر، والصغرى في العاشرة، والولدين في نحو السادسة، والخمسة بدا على عيونهم الإجهاد، وثيابهم المغبرة تحكي رحلة معاناة طويلة، لم ينتظر طويلاً فرحب بالمرأة وطلب منها أن تلحق به إلى مكتبه ففعلت وارتباك يسطع من عينيها المرهقتين، تقدمها وقادها إليه، ولحق بهم سهيل ثم انتظر في الخارج.

ولما جلسوا جميعهم، قالت المرأة في ارتباك وبنبرة مجهدة:

-أعتذر لأني جشمتك عناء القدوم إلى مقر عملك وفي وقت متأخر.

رد عليها مطمئناً:

-لا عليك، تفضلي يا أختي، أخبرني سهيل بأنك تبحثين عن سكن.

أجابته هذه المرة بنبرة لم تخل من الحزن:

-نعم، ليس لي أحدٌ هنا، ودلني بعض الناس عليك فور وصولي، وأيضاً ليس معي معيل، أنا المسؤولة الوحيدة عن هؤلاء الأطفال، أخبرني مساعدك بنظام مؤسستكم؛ فخشيتُ ألا ... أستطيع دفع أي شيء لكم بعد انقضاء الشهر، وأنا حتى لا...

لم تكمل المرأة عبارتها حين ألجمت لسانها غصة أفقدتها القدرة على الكلام ، لم يحتج عبد الكريم للمزيد من الشرح ليفهم حالها؛ كسرت الحرب عزة نفسها واضطرتها للهرب بنفسها وأولادها نحو مجهول لم تدر كيف سيكون، ودون أي شيء سيعينها في ملجئها، هذه طقوس الحرب وهكذا هم ساستها لا تخلف وراءها فقد المال والضحايا فقط بل انكسارات النفس وهزائم الروح، وربما كانت الماثلة أمامه ستتخذ من العفة طريقاً لها لولا أن أثقل كاهلها أربعة أطفال لم يبصروا سندا لهم إلاها، أشفق عليها وامتدت جحافل آلام قلبها إلى قلبه، قال متداركا إياه:

-أين تسكنين الآن؟

ابتلعت غصتها بصعوبة لتجيبه:

-وصلت منذ لحظات للمكلا، الحمد لله أني استطعت الوصول بما تبقى معي، الحرب تشتد رحاها في عدن، والناس في نزوح، الحمد لله على كل حال.

قال لها مواسيا:

-طيبي نفسا يا أختاه، سنقدم ما يلزم لأجلك فلا تقلقي.

-شكرا جزيلا يا سيدي، لا أدري كيف أجازيك على هذا.

-لا تشكريني، أسأل الله أن يزيح الغمة عن بلادنا كلها.

أمنت المرأة على قوله، ثم نادى على سهيل فدخل من فوره، قال له:

-دون بعض بيانات المرأة وأطفالها لتكملها في الصباح، ثم خذها لمقر سكنها، وانظر ما تحتاج.

هز رأسه إيجابا، ثم نهض عبد الكريم مودعاً المرأة وهي لا تزال تشكره وتقاوم سيل دمعاتها، ابتسم لها، ثم غادر المؤسسة واقترب من سيارته وهو يفكر، أوضاع الحرب اشتدت ولا شك بأن الأيام القادمة لن تكون سهلة أبدا على المكلا أيضاً، نازحين وغزاة ودسائس تدور رحاها في الخفاء لا يعلم عنها أحد، سيحتاج الجميع للمزيد من شحذ الهمة والكفاح غير العادي والصبر على ظروف ستشتد قسوة، ابنه الذي هو من صلبه يتهرب من هذا، كان يتمنى لو يشد ساعده به ويؤازره كما يؤازر أهل بلاده في محنتهم.

لم يقطع شروده وتفكيره وهدوء الليل حوله إلا أزيز رصاصة تخترق أذنيه بغتة، ثم تخترق بجسدها المعدني باب سيارته أسفل مقبض الباب الذي همَّ بفتحه، توافق ذلك مع ألم فظيع ينهش جنبه الأيسر وتسبب في إضعاف جسده، وشهق شهقة مختنقة قبل أن يدور ما حوله أمامه ويسقط أرضاً بعد لحظات.

واسترخى جسد طارق على فراشه الوثير فور دخوله غرفته، وغرق في غياهيب نومٍ لم ينتشله منه إلا رنين هاتفه، رفع يده اليمنى في تكاسل لتتحسس المنضدة القريبة من سريره، وهو لا يزال مغمض العينين حتى وصل إليه والتقطه، وبنصف عينه اليمنى قرأ اسم (ناصر) على شاشته، أسرع يرد عليه في تكاسل وهو يعيد إغماض عينه:

-مرحباً.

رد عليه ناصر في قلق:

-أين أنت يا طارق؟

-أنا بالبيت، ما بك؟ مالذي يقلقك؟

تلعثم للحظات ثم قال:

-والدك ...

فتح عينيه، وقال في استغراب:

-والدي؟ ما به؟

-إنه في المستشفى الآن.

هب من سريره فزعاً وقال:

-ما به؟ أخبرني.

-تعرض له رجلان من العصبة وأطلق أحدهما النار عليه.

-وكيف حاله الآن؟

-لا أدري، تناقل الناس الخبر بسرعة ولم يصلني إلا منذ لحظات عبر (الواتس) لهذا اتصلت بك كي أطمئن عليه.

-يا إلهي، سأذهب للمستشفى حالاً، أفدني بالعنوان.

أسرع بإخباره، ثم أضاف:

-سألحق بك لأطمئن عليه.

-شكراً.

قفز من سريره فوراً، وأسرع يرتدي ملابس الخروج، ثم نظر لساعة الحائط ووجدها تقترب من الحادية عشر، في تلك اللحظة قرعت أمه الباب فأذن لها، ولما فتحته بدا عليها وكأنها تود قول شيء، توقفت للحظة حين رأته بكامل هندامه، ثم سألته في قلق:

-إلى أين؟

تلبك قليلاً، لم يكن يرغب في أن يفاجئها بما حدث لوالده، فقال:

-سأذهب إلى ناصر، لقد طلب رؤيتي، لا شك بأن لديه أمراً هاماً.

-الآن؟ لن تخرج يا طارق، يكفيني تأخر أبيك، اتصل به حالاً واعتذر منه.

أسرع يتدارك الأمر وهو يقول:

-صحيح، أبي يريدني أيضا، طلب حضوري للمؤسسة.

مطت شفتيها في استنكار وهي تقول:

-مالذي تخفيه يا طارق؟

رد بسرعة حتى لا تلاحظ ارتباك أعماقه:

-لا شيء أمي.

ردت عليه في حزم:

-لا، أنت تحاول إخفاء أمر عني، هيا، أخبرني حالاً.

-لقد أخبرتك بكل شيء، دعيني أخرج الآن وأنفذ أمر أبي.

-لا، لن تخرج، سأتصل بوالدك وأعرف سبب تأخره أيضاً وطلبه لك الآن.

أسرعت تبتعد لتتصل من هاتف المنزل، ازداد ارتباكا فلحق بها بسرعة وهو يقول:

-أمي، هكذا ستحرجين أبي إنه في اجتماع مع عماله، دعيه وسأذهب إليه، وسأخبرك عن كل شيء، لن أتأخر، أعدك.

تنهدت بعمق ثم قالت في خوف:

-لقد قال لي كلماتك نفسها، القلق ينهش قلبي، لا أحتمل الانتظار يا بني.

قبَّل رأسها وقال:

-لا تقلقي، لن أتأخر وإن اضطررت لذلك سأتصل بك مباشرة.

هزت رأسها في عدم اقتناع:

-حسنا.

ابتسم لها وسرَّ أنه استطاع طمأنتها، وغادر على الفور وهو يتنفس الصعداء ويقول:

-الحمد لله أني نجحت في إقناعها، أرجو أن تكون بخير يا أبي.